

الإيمان بعذاب القبر

والرد على شبهات المنكرين

إعداد: أ. علاء إبراهيم عبد الرحيم

باحث بمركز

سلف للبحوث والدراسات



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه، ومن نهج نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان مستحقًّا للعذاب أو النعيم، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته؛ إذ ليس للعقل وقوفٌ على كيفيته؛ لكونه لا عَهدَ له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تُحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول(١).

وقد كتب الأئمة قديمًا في دحض شبهة إنكار عذاب القبر في مصنفات مفردة: كالبيهقي، وابن رجب، وغيرهم، وضمن مصنفاتهم: كابن القيم، والقرطبي، وغيرهما.

وشاع الكلام في الآونة الأخيرة على هذه المسألة، وظهر بعض منكري عذاب القبر، وارتفعت أصواتهم في وسائل الإعلام(٢)، مرتابين ومشكِّكين، ومستخدمين الأساليب القديمة لأهل البدع والضلالة، ومردِّدين لأدلتهم الزائفة من غير فهم ولا تمحيص، وهي في جملتها لا تخرج عن الدعاوى الردية والمعارضات الغوية، فاستعملوا آراءهم في رد الأحاديث الثابتة عن

(١) ينظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص: ٣٩٩).

(٢) مثل: جمال البنا، ومحمد عبده ماهر، وعلي الكيالي، وعدنان الرفاعي، وكلامهم مبثوث في وسائل الإعلام.

النبي صلى الله عليه وسلم، بل وفي رد ظواهر القرآن لغير سبب يوجب الرد ويقتضي التأويل(١).

لذا فإننا في مركز سلف سنتناول الكلام عن عذاب القبر بالأصالة في هذه الورقة العلمية؛ بيانًا لاعتقاد أهل السنة والجماعة مع ذكر جملة صالحة من أدلة الكتاب والسنة والإجماع، وإبطالًا لمذاهب أهل الزيغ والضلالة مع ذكر شبهاتهم التي تبجَّحوا بها، والرد عليها.

أولًا: أدلة الكتاب على إثبات عذاب القبر

١- قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، قاله ابن كثير(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٧]. وقد فُسِّر العذاب هنا: بعذاب القبر، قاله البراء بن عازب وترجمان القرآن – ابن عباس – رضي الله عنهم(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

---

(١) ينظر: الاعتصام للشاطبي (١/ ١٧٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ١٤٦).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٤٨٦- ٤٨٧)، وزاد المسير (٤/ ١٨١).

وجه الدلالة: أنه لو تأخر عنهم العذاب إلى انقضاء الدنيا، لما صحَّ أن يقال لهم: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾(١). يقول الحليمي – في الآية –: "دليل على أن لهم عذابًا واصلًا إليهم يوم الموت"(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

موضع الشاهد: في قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾، وبعدها مباشرة ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، والمرَّتان: إحداهما في الدنيا، والأخرى عذاب القبر، قاله قتادة والربيع بن أنس(٣).

ثانيًا: أدلة السنة

١- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما – قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: «أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ»(٤).

٢- عَنْ أُمِّ المؤمِنِينَ عَائِشَةَ – رضي الله عنها – قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدِي امْرَأَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ شَعَرْتِ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ؟ قَالَتْ: فَارْتَاعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «إِنَّمَا تُفْتَنُ

(١) الروح (ص: ٧٥).

(٢) المنهاج في شعب الإيمان (١/ ٤٨٨).

(٣) ينظر: أهوال القبور لابن رجب (ص: ٤٣)، والدر المنثور (٤/ ٢٧٤).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٢١٨)، ومسلم في صحيحه (٢٩٢).

يَهُودُ»، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَبِثْنَا لَيَالِيَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ شَعَرْتِ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ؟» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدُ يَسْتَعِيذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ(١).

٣- عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ – رضي الله عنه – قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ، إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ، فَقَالَ: «مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَقْبُرِ؟» فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، قَالَ: «فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟» قَالَ: مَاتُوا فِي الْإِشْرَاكِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ»، قَالُوا: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّال(٢) .

٤- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَشَرِّ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»(٣).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١٠٤٩)، ومسلم في صحيحه (٥٨٤).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢٨٦٧).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١٣٧٧)، ومسلم في صحيحه (٥٨٨).

٥- عَنْ ابْنَةِ خَالِدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ – رضي الله عنها – أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبرِ(١).

ودلالة هذه الأحاديث ظاهرة في إثبات عذاب القبر، من قول النبي صلى الله عليه وسلم، ومن فعله صلى الله عليه وسلم، وقد بلغت حد التواتر المفيد للعلم اليقيني(٢) .

ثالثًا: دليل الإجماع

أجمع الصحابة والتابعون على إثبات عذاب القبر، وأن الكفار في قبورهم يعذبون(٣).

ومع كثرة الأدلة المثبتة، وتواتر الأخبار الواردة في إثبات عذاب القبر، فإن بعض المتهوكين من الجهمية وبعض المعتزلة وأتباعهم من العقلانيين ينكرون عذاب القبر(٤)، وفيما يأتي بيان لشبهاتهم والرد عليها.

وليُعلم أن شُبُهاتهم في جملتها ترتكز على أمرين: إما استدلال بالآيات في غير موضعها، أو ردٌّ للأحاديث المتواترة، تارة بدعوى أنها قولية – وهو ما يكذبه الواقع، كما تقدم في الأدلة من السنة – وتارة بدعوى معارضتها للقرآن الكريم، وهي دعاوى كاذبة —كما سيرى القارئ الحصيف – أُتي أصحابها من قِبل عدم الفهم، أو سوء القصد؛ محاولة في إضلال الناس.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١٣٧٦).

(٢) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص: ٣٩٩)، ولوائح الأنوار السنية ولواقح الأفكار السنية (٢/ ١٦٤).

(٣) ينظر: الإبانة عن أصول الديانة (ص: ١٥)، والتذكرة للقرطبي (ص: ١١٩).

(٤) ينظر: الإبانة عن أصول الديانة (ص: ١٥)، والانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٢/ ٣٨٦)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص: ٦٩)، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨/ ١٤٥).

الشبهة الأولى:

زعموا أن قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦]. يدل على نفي عذاب القبر، أي: لا يذوقون في الجنة موتًا سوى الموتة الأولى، ولو صاروا أحياء في القبور - يعذبون أو ينعمون - لذاقوا الموت مرتين لا موتة واحدة(١).

الجواب عن هذه الشبهة من وجهين:

١- الآية الكريمة لا تتناول عذاب القبر أصلًا، ولا دلالة فيها على انتفائه؛ إذ هي مساقة في معرض الامتنان على أهل الجنة، والضمير في ﴿فِيهَا﴾ للجنة، أي: لا يذوق أهل الجنة في الجنة الموت أبدًا، فلا ينقطع نعيمهم كما انقطع نعيم أهل الدنيا بالموت(٢).

٢- وقولهم: ولو صاروا ... إلخ. ليس صحيحًا؛ لأن حياة الميت في قبره حياة أخرى تختلف عن حياته في الدنيا، فتعاد إليه روحه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا؛ ليسأل ويمتحن في قبره(٣). كما أن الإيمان بنعيم الموتى أو عذابهم في قبورهم لا يقتضي المساواة بين الحياتين.

الشبهة الثانية:

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

---

(١) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨/ ١٤٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٣)، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨/ ١٤٦).

(٣) ينظر: الروح (ص: ٤٣).

زعموا: أن الغرض من سياق الآية تشبيه الكفرة بأهل القبور في عدم الإسماع(١). والمعنى: لو كان الميت حيًّا في قبره – يُنعَّم أو يُعذَّب – لم يستقم الشبيه.

الجواب عن هذه الشبهة:

سياق الآية يدل على أن المراد منها: أن الكافر الميت القلب لا تقدر على إسماعه إسماعًا ينتفع به، كما أن من في القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعًا ينتفعون به، ولم يُرِد سبحانه أن أصحاب القبور لا يسمعون شيئًا البتة، كيف وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن قتلى بدر سمعوا كلامه وخطابه(٢)، وشرع صلى الله عليه وسلم السَّلام على الموتى بصيغة الخطاب للحاضر الذي يسمع؛ فعن أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى الْمَقْبُرَةَ، فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»(٣)، وغيرها من الأحاديث التي تدل على سماع الموتى(٤).

الشبهة الثالثة:

زعم بعض المعتزلة أن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. دليلًا على عدم وجود عذاب القبر؛ فلا تذوقه هذه النفوس في البرزخ الذي بين هذه الحياة القصيرة، وتلك الحياة الطويلة(٥).

---

(١) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨/ ١٤٥).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣٩٧٨، ٣٩٧٩)، ومسلم في صحيحه (٩٣٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢٤٩).

(٤) ينظر بعضها في: الروح (ص: ٤٥).

(٥) ينظر: تفسير المنار (٤/ ٢٢٢).

الجواب عن هذه الشبهة:

من أبلغ الرد على هؤلاء ما ذكره واحد من أساطينهم - وهو الزمخشري — حيث قال: "فإن قلت: فهذا يوهم نفي ما يروى من أن القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار. قلت — أي الزمخشري -: كلمة التوفية تزيل هذا الوهم؛ لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور"[١].

الشبهة الرابعة:

زعموا أن في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]. نفيًا لعذاب القبر؛ إذ كيف يقولون هذا، وهم معذبون في قبورهم؟![٢].

الجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

١- أن قولهم هذا لا ينفي عذابهم في قبورهم؛ لأن عذابهم فيها بالنسبة إلى ما بعده في الشِّدة كالرُّقاد[٣]، وإنما عبروا بذلك؛ لاختلاط عقولهم بما شاهدوه من هول يوم القيامة، وما داخلهم من الفزع، فظنوا أنهم كانوا نيامًا[٤].

---

(١) الكشاف (١/ ٤٤٩).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٤١).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥٨١)، ونظم الدرر للبقاعي (١٦/ ١٤٣).

(٤) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٤ / ٥٣١).

٢- أن المراد بالمرقد هنا: المخرج، وهو ما فسَّره به ترجمان القرآن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -(١). فالمرقد: قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها(٢).

٣- أن المراد بالمرقد: نومة قبل البعث، كما قاله غير واحد من السلف - أبي بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة - وعند بعثهم أحياءً من تلك النومة التي هي نومة موت، يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]. أي: هذا البعث بعد الموت، الذي وعدكم الرحمن على ألسنة رسله، وصدق المرسلون في ذلك، كما شاهدتموه عيانًا(٣).

الشبهة الخامسة:

قالوا: نحن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة، لا يُسأل ولا يجيب، ولا يتحرك، ولا يتوقد جسمه نارًا، ومن افترسته السباع، ونهشته الطيور، وتفرقت أجزاؤه، وفي أجواف السباع، وحواصل الطيور، وبطون الحيتان، ومدارج الرياح، كيف تسأل أجزاؤه مع تفرقها؟ وكيف يتصور مسألة الملكين لمن هذا وصفه، وكيف يصير القبر على هذا روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار؟ وكيف يضيق عليه حتى تلتئم أضلاعه؟(٤).

الجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٦/ ٢٩) معلقًا.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥٨١).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥٨١)، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٦/ ١٧٦).

(٤) ينظر: الروح (ص: ٦٢)، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨/ ١٤٥).

قد استفاض العلماء في الرد على هذه الشبهة، وذكروا وجوهًا كثيرة، وفيما يلي أشهرها(١):

١- أن الشرع الحكيم لا يأتي بما تحيله العقول، وقد يأتي بما لا تدركه العقول: كالأمور الغيبية، ومنها عذاب القبر ونعيمه، ولا يكون ذلك من المحال أصلًا.

فالواجب: هو أن يفهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم المراد من غير غلو ولا تقصير، فلا يُحمَّل كلامه ما لا يحتمله، ولا يُقصر به عن مراده، وما قصده من الهدى والبيان، وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى، ومنه ما تأولوه على غير مراده فوقعوا في نفي عذاب القبر ونعيمه، وفي الأدلة التي ذكرت سابقًا أوضح بيان.

٢- أن الله سبحانه جعل الدور ثلاثًا: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار.

وجعل لكلٍّ دار أحكامًا تختص بها، وركَّب هذا الانسان من بدن ونفس، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعًا لها؛ ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح، وإن أضمرت النفوس خلافه. وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعًا لها، فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا، فتألمت بألمها والتذت براحتها، وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب، تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها، والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم.

---

(١) هذه الأوجه ملخصة من كتاب الروح (ص: ٦٢- ٧٤)، وينظر: التذكرة للقرطبي (ص: ١١٨- ١٢٥)، وفتح الباري (٣/ ٢٣٥)، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨/ ١٤٧).

فالأبدان في الحياة الدنيا ظاهرة والأرواح خفية، والأبدان كالقبور لها، والأرواح في القبر ظاهرة والأبدان خفية في قبورها، تجرى أحكام البرزخ على الأرواح، فتسرى إلى أبدانها نعيمًا أو عذابًا، كما تجرى أحكام الدنيا على الأبدان، فتسرى إلى أرواحها نعيمًا أو عذابًا، فالإحاطة بهذا علمًا ومعرفته كما ينبغي يزيل الإشكالات جميعها.

وقد أرانا الله سبحانه بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أنموذجًا في الدنيا، من حال النائم؛ فإن ما ينعم به أو يعذب في نومه يجرى على روحه أصلًا، والبدن تبعٌ له، وقد يقوى حتى يؤثر في البدن تاثيرًا مشاهدًا، فيرى النائم في نومه أنه ضُرب، فيصبح وأثر الضرب في جسمه، ويرى أنه قد أكل أو شرب، فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فِيهِ، ويذهب عنه الجوع والظمأ.

٣- أن الله سبحانه جعل أمر الآخرة، وما كان متصلًا بها غيبًا، وحجبها عن إدراك المكلفين في هذه الدار، وذلك من كمال حكمته سبحانه، وليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم، فما يحدث للإنسان في قبره من نعيم أو عذاب من الغيب الذي يجب الإيمان به، وإن لم ندرك كيفيته.

٤- أن النار التي في القبر والخضرة، ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا، فيشاهده من شاهد نار الدنيا وخضرها، وإنما هي من نار الآخرة وخضرها، وهى أشد من نار الدنيا، فلا يحس به أهل الدنيا، فإن الله سبحانه يحمي عليه ذلك التراب والحجارة التي عليه وتحته، حتى يكون أعظم حرًّا من جمر الدنيا، ولو مسَّها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك، بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفنان أحدهما إلى جنة الآخرة، وهذا في حفرة من حفر النار لا يصل حرُّها إلى جاره، وذلك في روضة

من رياض الجنة لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره، وقدرة الرب تعالى أوسع وأعجب من ذلك.

٥- أن الله سبحانه وتعالى يحدث في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك:

فهذا جبريل عليه السلام كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم، ويتمثل له رجلًا فيكلمه بكلام يسمعه، ومن إلى جانب النبي لا يراه ولا يسمعه، وكذلك غيره من الأنبياء، وأحيانًا يأتيه الوحي في مثل صلصة الجرس ولا يسمعه غيره من الحاضرين.

وهؤلاء الجن يتحدثون ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا، ونحن لا نسمعهم، وقد كانت الملائكة تضرب الكفار بالسياط، وتضرب رقابهم، وتصيح بهم، والمسلمون معهم لا يرونهم ولا يسمعون كلامهم.

والله سبحانه قد حجب بني آدم عن كثير مما يُحدِثه في الأرض وهو بينهم، وقد كان جبريل يُقرِئ النبي صلى الله عليه وسلم، ويدارسه القرآن والحاضرون لا يسمعونه.

وكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ويُقِرُّ بقدرته أن يُحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه؛ حكمة منه ورحمة بهم؛ لأنهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها، والعبد أضعف بصرًا وسمعًا من أن يَثبت لمشاهدة عذاب القبر.

٦- أنه غير ممتنع أن تُرَدَّ الروح إلى المصلوب والغريق والمحروق، ونحن لا نشعر بها؛ لأن ذلك الردَّ نوع آخر غير المعهود، فهذا المغمى عليه حيٌّ وروحه معه، ولا نشعر بحياته.

ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالًا بتلك الأجزاء، على تباعد ما بينها وقربه، ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل في الجمادات شعورًا وإدراكًا تسبح ربها به، وتسقط الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبحه الحصى والمياه والنبات؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ فإن كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها. وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]. والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ: ١٠]. والدلالة لا تختص بمعية داود – عليه السلام – وحده، وكذب على الله من قال: التأويب: رجع الصَّدى؛ فإن هذا يكون لكل مصوِّت.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]. والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس.

وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١]. فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله، وإن جحدها الجاهلون المكذبون.

وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه، ويسقط من خشيته.

وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يأذنان له، وقولهما ذلك، أي: يستعمان كلامه، وأنه سبحانه خاطبهما فسمعا خطابه، وأحسنا جوابه، فقال تعالى لهما: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

والمقام في ذكر ذلك يطول، وفيما تقدم غنية لمن عقل وتدبَّر.

٧- ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة، وسمي عذاب القبر ونعيمه، وأنه روضة أو حفرة نار باعتبار غالب الخلق، فالمصلوب والحرق والغرق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذي تقتضيه أعماله، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما.

فقد ظن بعض الأوائل أنه إذا حرق جسده بالنار وصار رمادًا، وذري بعضه في البحر وبعضه في البر في يوم شديد الريح، أنه ينجو من ذلك، فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال: قم، فإذا هو قائم بين يدي الله، فسأله ما حملك على ما فعلت؟ فقال: خشيتك يا رب، وأنت أعلم، فما تلافاه أن رحمه(١).

فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء التي صارت في هذه الحال، حتى لو علق الميت على رؤوس الأشجار في مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه، ولو دفن الرجل الصالح في أتون من النار لأصاب جسده

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣٤٨١)، ومسلم في صحيحه (٢٧٥٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه، فيجعل الله النار على هذا بردًا وسلامًا، والهواء على ذلك نارًا وسمومًا.

فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها، يصرفها كيف يشاء، ولا يستعصي عليه منها شيء أراده سبحانه، بل هي طوع مشيئته، مذللة منقادة لقدرته، ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين، وكفر به وأنكر ربوبيته.

٨- أن الموت معادٌ وبعثٌ أول؛ فإن الله سبحانه وتعالى جعل لابن آدم معادين وبعثين؛ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

فالبعث الأول مفارقة الروح للبدن، ومصيرها إلى دار الجزاء الأول، والبعث الثاني يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها، ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار، وهو الحشر الثاني، ولهذا في الحديث الصحيح: "وتؤمن بالبعث الآخر"(١)؛ فإن البعث الأول لا ينكره أحدٌ وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هاتين القيامتين - وهما الصغرى والكبرى - في سورة المؤمنين وسورة الواقعة وسورة القيامة وسورة المطففين وسورة الفجر وغيرها من السور.

وقد اقتضى عدله وحكمته أن جعلها داري جزاء المحسن والمسيء، ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثاني في دار القرار، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤٧٧٧)، ومسلم في صحيحه (٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

خلاصة القول: إن مذهب سلف الأمة وأئمتها – وهو المذهب الحق –: أن الإنسان إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا، فيحصل للبدن معها النعيم والعذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم إلى رب المعاد(١).

والموفق من وفقه الله تعالى، فآمن وصدق بما ثبت دليله من أمور الغيب، وما خفي عليه منها فإنه يكل أمره إلى الله تعالى، ولا يعارضه بعقل ولا هوى، نسأل الله تعالى العصمة من الزلل، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

(١) ينظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٥).